راسا من تلك المواد الخام ؟.. اي انسان ، لم يكن شاهدا عيانا لما حدث ، كان يستطيع ان يتصور ذلك الزوال السريع لأعنف أهواء التفرض ، والتحيز المحلية ؟.. من كان يستطيع ان يتصور أولئك الرجال الذين اتوا من مناطق القارة المختلفة ، الذين يميلون ، بسبب عادات التربية التي تعودوها ، الى ازدراء ومخاصمة بعضهم بعضا ، يتحولون فجأة الى عصبة وطنية من الاخوة ؟.. » .

حرب التحرير هي المسؤولة عن ذلك ، وهي التي خلقت ، عبر الكفاح المسلح الطويل ، تلك الوحدة القومية الجديدة . فقبل تلك الحرب ، لم يكن هناك اي شعور ولاء لـ « أميركا » ، لان الولاء كان يتجه اما الى بريطانيا ، واما الى الولايات الفردية المختلفة التي كانت تعيش منفصلة عن بعضها ، متباغضة ، متخاصمة ، متنافرة ، متهاترة ، سياسيا ، واقتصاديا، واخلاقيا . كثيرون من معاصري تلك المرحلة ، من أميركيين ، ومن أجانب ، علقوا آنذاك على هذه المشاحنات والانقسامات الصريحة ، وكثيرون ، كفرانكلين ، كانوا متشائمين من امكان تجاوزها .

هنا تجدر الملاحظة أن أميركا اللاتينية التي لم تواجه هذا النوع من الصراع الخارجي ضد المستعمر لم تستطع ان تحقق الوحدة التي استطاعتها الولايات الاميركية . فحرب التحرير ضد اسبانيا كانت محدودة ، لم تتطلب تلك المواجهة القاسية الطويلة التي عانتها الولايات الاميركية . فالضغط الاسباني كان ضعيفا ، ولذلك كان بامكان بعض المناطق أن تحقق حريتها دون أن تخوض معركة واحدة ضد اسبانيا .

وحدة بريطانيا ، وكذلك وحدة المانيا ووحدة ايطاليا تعود ايضا أساسيا الى صراعات مع اعداء من الخارج .

بلدان آسيا وافريقيا كانت تعيش في ظل انظمة تقليدية ثابتة، ولا تتميز بديناميك اجتماعي تاريخي . المرحلة الانتقالية التي تمر بها الآن تعني فيما تعنيه أن هذه البلدان أصبحت تعاني هذا الديناميك . أما الاسباب التي فجرته، فلم تكن داخلية ، تتمثل في قوى انتاجية وطبقية جديدة ، بل خارجية تقوم في نكبات أصابتها نتيجة هزائمها أمام الغزو الغربي . هذا الغزو هو الذي حرك أولا شعوب هذه البلدان ــ وخصوصا الاسيوية ، ودفعها الى التحول ، وهو الذي قاد الى ظهور طبقات وقوى انتاجية جديدة كانت جزءا من الرد ضده .

هذا لا يعني أن البلدان الاسيوية والافريقية لم تعرف التحولات الداخلية في الماضي . ففي ماضيها الطويل الذي يمتد الى آلاف السنين ، عانت هذه البلدان تحولات عديدة ولكنها لم تعرف ما يمكن تسميته بردود الفعل المتسلسلة التي يقود فيها تحول ما الى تحول آخر ، بسلسلة متتابعة من التحولات المترابطة ، وبشكل يشعر فيه الناس أن التحول شيء طبيعي، وهو ما نعنيه عندما نتكلم حاليا عن الديناميك الاجتماعي التاريخي. هذا النوع من التحول لم يفرض ذاته عليها نتيجة تطور بطيء ، بل نتيجة كوارث وهزائم من الخارج ، كان من أولى نتائجها الكشف عن افلاس الانظمة والطبقات التقليدية ، وتشتيت وحدة الوجود التقليدي . ماركس كان ، بين مؤسسي السوسيولوجيا الحديثة، اول من نبه الى اثر هذا الغزو الثوري في آسيا . فقد كتب أن استعمار الدول الاوروبية لآسيا كان قاسيا وشرسا ، ولكنه قوة تدعم ــ طبعا من حيث لا تريد ــ التقدم في البلدان المتخلفة . ذلك الاستعمار كان قاسيا ــ وكل تقدم في نظر ماركس يكون في الاغلب قاسيا ــ ولكنه في الوقت نفسه كان نافعا لانه ينهي ذلك السبات الطويل الذي ساد آسيا ، ويدفع شعوبها الثابتة « في المجرى الاساسي للتطور التاريخي » .

هذه الوحدة التي تنتج عن صراع ضد غزو ، استعمار او صراع خارجي تؤكد ذاتها في صعيد آخر هو صعيد الاقليات الدينية والقومية . فهذه الاقليات تحقق عادة درجة من الوحدة والشعور الواحد لا تتوافر للأكثرية التي تحيط بها ، وذلك بسبب الضغط الذي تعانيه من الخارج .